الثقافة حين تخدم المجزرة

حازم صاغيّة

■ بين الثقافة والمجزرة شَبَه يخون العين البسيطة. صحيح أن جان بول سارتر كان يعمل في قلب حركة الشارع والحشد، لكن المألوف ان المرء إذ يكتب ويقرأ ويفكّر، يستبعد العالم والآخرين فينتهي الى ان يقتلهم رمزياً. حتى الطفل الذي يحرّك في البشر بعض أنبل نوازعهم وأرقّها في آن، يكاد القارئ والكاتب يتمنّيان اندثاره إذا صرخ وبالغ فيما هما متورّطان في القراءة والكتابة. ويمكن، فوق هذا، احتمال الوحشيّ، أو البريّ، أو كلّ ما هو من غير سويّتنا أكثر مما يُحتمل الإنسيّ. فيقول، بالمعنى هذا، شاعر صعلوك:

«عوى الذئب فاستأنستُ بالذئب إذ عوى
وصوّت إنسان فكدت أطير».

لكن الشبه بالمجزرة لا يقتصر على الممارسة الثقافيّة في وجهها العملاني. فإذا كانت الثقافة اليونانية الجدّ الأعلى لثقافتنا المعاصرة، جاز القول إن اليونان لم يكفّوا عن بناء عمارات كاملة ومثلى يُطرد منها غير المؤهلين الإقامةَ فيها. وما دام سقراط الأيقونة الثقافية الأولى، صحّ النظر الى تجرّعه السمّ بوصفه ربطاً لا يقوى عليه البشر بين الثقافيّ والبطوليّ. ولنتأمل حجم الفرز الذي يحصل كلّما تلفّظنا بنعت «أفلاطوني». ولنتذكّر أيضاً ان الثقافة، في نشأتها يومذاك، ترادفت مع امتلاك وقت الفراغ والامتناع عن العمل، أي عن الاحتكاك بالحياة وبشرها تالياً. لا بل فلنفكّر لحظة في الطبيعة السامية والمتعالية لأسئلة «الجمهورية»، تلك المحاورة الثانية أهميةً المنسوبة الى سقراط: ما العدالة في الدولة؟ كيف شكل الدولة المثلى؟ ما الفرد العادل؟ كيف ينبغي تعليم الموظّفين؟ أي أنواع الفنون ينبغي تشجيعها؟ الخ.

لقد ذهب أفلاطون، مثلاً، الى ان على الدولة ان تضم الفضائل الأربع الكبرى، وهي: الشجاعة والحكمة والاعتدال والعدل. وهو، من خلال سقراط، قسّم الكائنات الانسانيّة تبعاً لذكائهم وقوّتهم وشجاعتهم. وإذ يُحكم على الذين لا يتمتّعون بأي من هذه المواصفات بالهبوط الى الوضاعة، والوضاعة هي العمل في الزراعة والبناء، تُرفع الاريستوقراطية، وهي من يتمتع بالمواصفات هذه، الى مصاف الطبقة الحاكمة. فالأريستوقراطية، لغةً، لا تعني، في استباق للداروينيّة الاجتماعيّة، إلا «حكم الأفضل».

وربما بلغ الوعي المراتبيّ ذروته في مجاز الكهف والخطّ المقسوم الذي أعطى الفلسفة الغربية إحدى أقوى فقراتها وأشدّها تأسيسية. فالكائنات الانسانيّة، عنده، يعيشون في عالمي الأشياء المنظورة والأشياء القابلة التعقّل. أمّا العالم المنظور، وهو متغيّر قلق، فما يحيطنا مما نرى ونسمع ونجرّب، لكن العالم القابل التعقّل فمصنوع من منتجات العقل الانساني التي لا تتغيّر، مثل التعريفات المجرّدة للرياضيات. بيد ان الأخير هو عالم الواقع الذي يملك «الأشكال» الأبدية للأشياء (والأشكال تعني باليونانيّة الأفكار).

وهذه المقدّمات المبوّبة والطاردة، أكانت عقلانيّة متزمّتة أم لا عقلانيّة، تؤول الى هندسة اجتماعيّة جاذبيتها على المثقفين قويّة. فقد استهوى السعيُ المتجانس والمتماسك لبناء جنّة على الأرض أفراداً أطهاراً وأنقياء لم يكن بول بوت في شبابه غير واحد منهم.

وإذا بدت لنا فجّة وفاقعة أحكام كمطالبة ألفريد روزنبرغ بتصفية ثلاثين مليون سلافيّ يكسفون صورة العرق ونصاعته، فقد أوصل مارتن هايدغر المعنى نفسه بلباقة ثقافيّة أرفع إذ عرّف الحقيقة، في تصريحه الشهير المؤيّد لهتلر، عام ١٩٣٣، بأنها «الكشف عما يجعل شعباً واثقاً، ونظيفاً وقوياً في أعماله ومعرفته». وذهب إزرا باوند الى النبع، قبل أن ينتهي الى المصحّ العقليّ، فحدّد عدوّه في البشر وأعدادهم. ولم يلبث خوفه من هؤلاء التافهين الاميين الذين يتناسلون ان تناسل، هو نفسه، كراهيةً تحمل فيها رغبة بالقتل عارمة. ذاك ان النزوع الجمالي البحت والافتخار بأمميّة تقتصر على الكتّاب والفنانين والموسيقيين والأريستوقراطيين كان الوجه الآخر لمقت البشر واليهود والشيوعية والديموقراطية والتقدم ممن لا تليق بهم «الحكمة» المتعالية التي تضجّ بها «مقاطع» لـه (Cantos) ولا يليقون بها. فهي حكمة مقدسة أو gnosis وهم لا أكثر من عاديين.

وتعمل أنظمة الطرد والاستئصال في صور شتى. فمنذ أواسط الخمسينات كان ريمون آرون في كتابه «أفيون المثقفين» قد بيّن الفارق الضخم بين الأساطير البطوليّة عن الاتحاد السوفياتي وبين واقعه المزري، عائباً على التقليد الفكريّ الفرنسي التزامه القضايا من دون تحليل الوقائع والاعتبار بنتائجها. وهذا، عنده، تجميل للشرور وتقنيع لها يسهّل تكرارها أو يستدعيه. والطرد والاستئصال قد تلتفّ شفرتهما الأقوى عن الناس لتداهمهم في تاريخهم الذي تُعاد كتابته على الطريقة الستالينيّة ومتفرّعاتها الكثيرة، أو يُناط بهما إحداث النسيان، على ما حاولته الرواية الصهيونيّة لحرب ١٩٤٨ أو موقف الإنكار التركي للمجزرة الأرمنيّة. وما يضاعف الرعب في المنحى هذا ان المدعوين الى النسيان قد يكونون ناشطين في الحدث الذي ينبغي نسيانه.

لكن ما لا شك فيه ان التمجيد الصريح للعنف أحد المواقف المشرعة على التواطؤ مع المجازر. وتمجيد كهذا تسنده مكتبة ربما كان أبرز ممثليها في القرن العشرين جورج سوريل وفرانس فانون. فأولهما، المتقلّب بين الفوضوية النقابية والفاشية والماركسية، كان خلّف انجيلاً من «التأملات في العنف» محكوماً برغبته في عسكرة الصراع الطبقي عبر «الاضراب العام». وإذ أوكل الثاني الى البروليتاريا الرثّة مهمة عنف تطهيري يشفي نفوس المستعمَرين ويدمل جروح كراماتهم فيما يضع حداً للاستعمار، فإنه وجد في سارتر الذي خطّ المقدّمة الشهيرة لكتابه «معذبو الأرض» من يعلن غير هيّاب: «أن تطلق النار على أوروبي هو ان تقتل عصفورين بحجر واحد... فينشأ رجل ميت ورجل حرّ».

لكن يبقى ان زعم المعرفة بوجهة للتاريخ وبقصديّة يعمل التاريخ على خدمتها يجيز التخلص من البشر في سبيل «مصلحتهم»، كما في سبيل مسايرة «قوانين التاريخ». وضد النظرة الكليّة هذه، جادل كارل بوبر طويلاً مشدداً على أهميّة المقاربات التدرجيّة وعلى الجهد لتحسين المؤسسات وأدائها وتطوير تقنيّات التعايش الإنساني من طريق إدامة الاحتكاك بالواقع، والبناء تالياً على ما تثبته التجربة تلك وتثبت صلاحه. وهذا بعيداً من عجرفة الادعاءات التغييريّة الكبرى التي تترك وراءها من الدم ما لا يسهل حسبانه، ومع التمييز دائماً بين معاينة الترابط الذي يجمع أشياء تبدو متفرّقة وبين نظرة تأخذ العالم كُلاً بسيطاً فتسعى الى تغييره بعلاج سريع الشفاء، واحد.

وما دانه كارل بوبر اتجاه علمويّ رآه البعض من مترسّبات التنوير في رفعه العلم الى ثيولوجيا والعلماء الى كهنة حديثين.

وقد غدا المطلوب، بموجب التصوّر المذكور، تبويب حركة كل ما يتحرّك في النظام الطبيعي، بما في ذلك البشر، وفهمه وتغييره. فالنزعة التي انتقلت من فهم الطبيعة الى السيطرة عليها توخّت، لدى تطبيقها على المجتمع، السيطرة على موقع النوع البشري في النظام الطبيعي. وفي سياق كهذا نشأت العلوم المزعومة كالتحكم في النسل، ورمى النازيون الى هندسة أمم لا يكون فيها يهود (Judenfrie) وغجر ومثليون.

فما ان تحضر «قضيّة مركزيّة» يهون في سبيلها كل شيء آخر، كالعرق عند النازيين والاستقلال عند فانون والصراع الطبقي عند سوريل، حتى يشيع الموت المعمّم. وما أن يقال لنا إن هناك وضعاً استقطابياً حاداً في انقسامه، فإما ان نكون هنا أو نكون هناك، حتى نتبيّن أن القدرة على منع المجزرة ضعيفة، وأن نقدها، في حال حصولها، ضعيف كذلك. وهو ما يصح حتى حين تكون الديموقراطيّة تلك القضية التي يُشاع ان العراقيين لا يأبهون لموتهم في سبيلها.

والحال ان الثقافة الجمعيّة أقدر دائماً على انتهاك جسد الفرد، أو التمهيد لذلك. فالجسد، كما تقول المسيحيّة، خاطئ لا يملك أهميّة الروح ولا يسمو أبداً الى مصافها. إلا ان الروح أيضاً قابلة للانتهاك من خلال التشكيك بنظافتها وأصالتها وتعرّضها للضلال، في محاولة لنزع الأنسنة عن صاحبها وطرده من النطاق البشري المحصور والمفيد. فأهل «الثورة الثقافيّة الصينيّة» سكّوا مصطلح «التلوّث الروحي» لإيصال المعنى هذا قبل إقدامهم على سوْق «الملوّثين» الى المعسكرات. وقد روى لنا بريمو ليفي في «البقاء على قيد الحياة في أوشفيتز» (Survival in Auschwitz) ان النازيين درجوا على تسمية الموتى الأحياء من حاملي الجثث الشمعية في معسكرات الموت بـ «المسلمين».

فهؤلاء إذ يصار الى استبعادهم وتبعيدهم الى ما وراء تخوم المعرفة والمخيّلة والمألوف الأوروبي، تصير تصفيتهم أسهل تنفيذاً وأشد امتلاكاً لـ «مبرّراتها».

> **إذا كان تولستوي بحسب ستيفان زفايغ يسيطر على الموت ويستبعده من خلال وصفه الموتى، فإن الثقافة تملك قابليات الصراع مع المجزرة والتغلّب عليها تعريفاً بها وتحليلاً لها وموقفاً جذرياً منها. وهنا نطل على الميل العميق لدى الأنظمة والجماعات التي ترتكب المجازر الى قتل المثقفين ورذل ثقافتهم.**

وفي الثقافات الجمعيّة والجماعيّة يلعب ثقل التاريخ دوراً قاتلاً. فيقيم في المركز الايديولوجي لشعب من الشعوب استئنافه معركةً خيضت في الماضي وتبقى تُخاض الى ما شاء الله.

هكذا تُستعاد، مرة بعد مرة، ذكرى الحروب والنزاعات بنفس يغلب عليه التمجيد في حال الانتصار، وطلب الثأر في حال الهزيمة. ومعروفٌ، مثلاً، دور بعض كبار المثقفين الصربيين عام ١٩٨٦ في وضع برنامج ايديولوجي تبنّاه ميلوشيفيتش وعُرف بـ «المذكرة» (the Memorandum) طغى عليه حسّ هستيري بالظلامة والخيانة التاريخيتين اللتين تعرّض لهما الصرب منذ هزيمة كوسوفو أمام الاتراك في ١٣٨٩. فهزيمة كهذه تغدو أسطورة مؤسّسة للقومية المحتقنة التي لا تنفّس، إلا بالدم، احتقانها. وإنما في البيئة هذه شاع استخدام تعبير «التطهير الإثني»، وهي تقنيّة حربية قديمة وفاعلة في وحشيتها، أعطاها الصرب تسميتها الحديثة و «الصحيّة» (hygienic).

وقد بالغ مثقفو الصرب، كما فعل مثقفو العرب واليهود وغيرهم، في إبداء ضحويّتهم، كما بالغوا في إعلان امتلاكهم الحقّ كلياً وحصرياً. ومن يبالغ في ضحويته يبالغ في جلاديّته حيال الآخر الفعلي أو المتوهّم. ومن يبالغ في شهاديته للحق يبالغ، حين يتاح له، في ممارسة القتل.

غير ان أحد مصادر الموت في الثقافة المعاصرة الهيمنة التكنولوجية بوصفها حصيلة المنهج والوسائل الموصلة الى غرض عملي عبر استخدام تفكير عقلاني أو «ذكي»، وبمعنى ما يمكن إدراج الوعي الأصولي في الخانة العريضة هذه من زاوية افتقاره الى العناية بالفلسفة والتاريخ والاصلاح الديني. يقابل الميل التقني الفقير والارتجالي هذا نمط آخر مبقرط وناهض على تقسيم عمل موسع بقدر ما هو نافٍ للنقد وعمليّات التحويل الاجتماعي. فـ «الخبراء» التقنيون ممن يجيدون رسم السياسات «الواقعية» وتنفيذها ينطوي نشاطهم على استبعاد كل أمر إيديولوجي وعلى توكيد أوليّات التراتُب والطاعة وأداء الواجب وتحويل العمل الى روتين وتقديم البشر الواقعين في جبهة الخصم على أنهم أقل انسانية. وفي نطاق كهذا يندرج قاموس اميركي نعرف بعض عباراته لدى وصف عملية حربيّة بأنها «أشدّ العمليات في الحروب الحديثة دقة وإنجازاً للأهداف المرسومة».

ومن هذا القبيل لم يتردد إرفينغ كريستول، مع احتدام الحرب الفيتنامية عام ١٩٦٥، في الاشارة الى «شن حرب نوويّة على الصين في ظروف قصوى» وغير ذلك مما انطوت عليه محاولات تطويع الوعي التقني الذي يُسلَّم له بالقيادة الظاهرية، لوعي ايديولوجي مكتوم هو القائد الفعلي أبداً.

لكن تأييد المجزرة غالباً ما يكون صعباً فيحلّ محله الصمت عنه، على ما فعل كثيرون من المثقفين العرب حيال حلبجة الكردية، وما يفعلونه اليوم حيال دارفور السودانية. بيد انه مثلما يناط بالإنكار خدمة المجازر، قد يكون الإقرار شكلاً آخر في خدمتها. ففي أواخر الثمانينات مع ظهور «المؤرخين الجدد» الاسرائيليين، نشر بني موريس «ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، ١٩٤٧ - ١٩٤٩»، ثم نشر، في ٢٠٠٤، طبعة ثانية موسّعة عرّفت بمزيد من المذابح التي أُنزلت بالفلسطينيين. إلا انه قبل شهر على صدورها، قال في مقابلة شهيرة لصحيفة «هآرتز» (٢٠٠٤/١/٩) انه «ما كان ممكناً لدولة يهودية ان تولد من دون اقتلاع ٧٠٠ ألف فلسطيني. لم يكن هناك خيار سوى طرد هؤلاء السكان». لا بل أنحى باللائمة على ديفيد بن غوريون لأنه لم ينه العمل ويكمل الطرد. وواقع الحال ان اقراراً كهذا، يبالغ في التعويل على وضعانيّة وتجريبيّة تزعمان الفصل الكامل بين التأريخ أو التحليل وبين النتائج السياسية، يرقى الى وثيقة احتقار غير هيّاب للثقافة، ووثيقة انحياز، غير هيّاب هو الآخر، للموت.

وغني عن القول إن ما تقدم ينحصر نطاقه في بُعد واحد وحيد من أبعاد الفعل الفكري والابداعي. فإذا كان تولستوي، بحسب ستيفان زفايغ، يسيطر على الموت ويستبعده من خلال وصفه الموتى، فإن الثقافة تملك قابليات الصراع مع المجزرة والتغلّب عليها، تعريفاً بها وتحليلاً لها وموقفاً جذرياً منها. وهنا نطل على الميل العميق لدى الأنظمة والجماعات التي ترتكب المجازر الى قتل المثقفين ورذل ثقافتهم. غير ان هذا، بطبيعة الحال، حديث آخر.

---

* مداخلة ألقيت في ندوة أقامتها «أمم للتوثيق والأبحاث» بالتعاون مع «مؤسسة هاينريش بول» - بيروت.